

الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي: قراءة في سوسيولوجيا بيير بورديو

حسني إبراهيم عبد العظيم (*)

أستاذ علم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة بني سويف، مصر.

مقدمة

يمثل بيير بورديو (١٩٣٠ - ٢٠٠٢) (Pierre Bourdieu) الرمز الأهم في مجال علم الاجتماع في العقود الأخيرة، فلقد طرح ما يمكن أن نطلق عليه المشروع الفكري الأكثر شمولاً ورونقاً (Elegance) منذ تالكوت بارسونز (Mander, 1987: 427). لقد قدم بإتقان نظرياته الاجتماعية المتميزة على مدار حياته الحافلة المليئة بالأحداث، وعكست هذه النظريات التزامه الدائم نحو العلم، وبناء المؤسسات الفكرية، وتحقيق العدل الاجتماعي، وقد امتلك اتجاهاً سوسيولوجياً وأكاديمياً لا نظير له، وبحسب تعبير ريمون آرون (R. Aron) كان بورديو استثناء لقوانين انتقال رأس المال الثقافي التي صاغها في كتاباته المبكرة، منذ نشأته كابن وحفيد لمزارعين في منطقة هامشية في فرنسا، إلى متربّع على قمة الهرم الثقافي الفرنسي باعتباره واحداً من أهم علماء الاجتماع في العالم (Waquant, 2002: 349).

فعند وفاته في ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، كان بورديو عالم الاجتماع الأكثر بروزاً وشهرة على مستوى العالم، فظنراً إلى كونه منتجاً للعديد من الأعمال الكلاسيكية الرصينة، أصبح مرجعاً ضرورياً في العديد من التخصصات، كالتربية والثقافة وعلم اجتماع المعرفة، وحاز كذلك على مكانة أكاديمية متميزة في الأنثروبولوجيا الثقافية نتيجة دراساته حول مجتمع القبائل أثناء حرب التحرير الجزائرية وما بعدها، وقد زاد نجمه سطوعاً أثناء تسعينيات القرن الماضي، عندما أصبح مشاركاً بقوة في الصراع السياسي ومعارضاً عنيداً لليبرالية الجديدة المتطرفة التي سيطرت على الخطاب السياسي في القارة الأوروبية (Wieninger, 2005: 82).

والحقيقة أن الإنتاج الفكري لبورديو قد غطى مناطق بحثية واسعة ومتنوعة، تضمنت مثلاً التربية والعمل والقراءة والتطور الاقتصادي وفلسفة اللغة والأدب والتصوير والمتاحف والجامعات والقانون والدين وعلم النفس والنقد الثقافي (Cultural Criticism)، ودراسات النوع (Gender)، وغير ذلك من المجالات (Ozturk, 2005: 143, and Preebles, 2008: 328).

وتحاول الدراسة الحالية الاقتراب من إحدى المناطق البحثية المهمة في فكر بيير بورديو، وهي سوسيولوجيا الجسد، فقد لاحظ الباحث أنه على الرغم من الاحتفاء الكبير بفكر بورديو في الحقل الأكاديمي العربي، إلا أنه لا يوجد اهتمام مماثل بتحليل رؤية بورديو للجسد، فالملاحظ بشكل عام أن الدراسات العربية قد تناولت إسهامات بورديو في مجالات عديدة، كالتربية وارتباطها بقضايا رأس المال الاجتماعي والثقافي، والإعلام ودوره في تنمية الوعي أو تزييفه، والهيمنة الذكورية وتأثيرها في وضع المرأة ومكانتها الاجتماعية، وتحليل الطبقات الاجتماعية، بالإضافة إلى اهتمامها بإسهاماته النظرية والمنهجية التي أدت إلى تطور الخطاب السوسيولوجي، في حين لم تهتم معظم الدراسات العربية بما يمكن أن نطلق عليه «نظرية بورديو في الجسد».

والأمر اللافت للانتباه أنه رغم ذلك «التفاضي» عن إسهام بورديو في تحليل الجسد لدى الباحثين العرب المهتمين به، نجد أن الخطاب السوسيولوجي العربي المعاصر قد اهتم بذلك اهتماماً واسعاً، بل إن ثمة يقيناً لدى معظم المهتمين بسوسيولوجيا الجسد أن بيير بورديو يعدّ أحد الآباء المؤسسين لذلك النظام المعرفي الجديد المتنامي والواعد.

وانطلاقاً من ذلك، تأتي هذه الدراسة لرصد أهم ملامح نظرية بورديو في الجسد، والكشف عن مدى إسهام هذه النظرية في ارتياد البحث السوسيولوجي آفاقاً جديدة، حيث ظلّ الجسد بعيداً عن دائرة الوعي السوسيولوجي لفترات طويلة، وساهم بورديو مع آخرين – خاصة ميشيل فوكو^(*) (١٩٢٦ – ١٩٨٤) (M. Foucault) – في إعادة الجسد مرة أخرى إلى تلك الدائرة، وكان لذلك تأثير واضح في تطور علم الاجتماع على المستويين النظري والمنهجي.

وتكتسب الدراسة أهميتها من أهمية سوسيولوجيا الجسد من جهة، ومن أهمية بورديو كمنظر بارز من جهة أخرى، ففي ما يتعلق بسوسيولوجيا الجسد هو نظام معرفي واعد، وما يزال يحتاج إلى المزيد من الجهود العلمية لإرساء قواعده في الفكر السوسيولوجي العربي. ويأمل الباحث أن يسهم ذلك الجهد المتواضع الذي تنطوي عليه الدراسة الحالية في لفت انتباه الباحثين في المجتمع العربي إلى ذلك الفرع الوليد، خاصة أن الجسد في مجتمعنا العربي يحتاج إلى المزيد من البحث لرصد واستكشاف الإشكاليات الاجتماعية والثقافية و«السياسية» المرتبطة به، فضلاً على الإشكاليات المنهجية والنظرية المتعلقة بدراسته. أما في ما يتعلق ببورديو، فليس ثمة شك في الدور الأكاديمي والمجتمعي الذي أداه في تطوير علم الاجتماع وانطلاقه إلى آفاق أوسع، وكان تحليله للجسد أحد هذه الآفاق التي كان مسكوتاً عنها في الموروث السوسيولوجي الكلاسيكي.

والحقيقة أنه لا يمكن فهم رؤية بورديو للجسد بمعزل عن الإطار النظري العام الذي قدمه، ولا يمكن فهم هذه الرؤية أيضاً بمعزل عن «المنظومة المفهومية» (Terminology) التي طرحها، والتي أسهمت في إثراء المعجم السوسيولوجي.

(*) للتعرف على إسهام فوكو في دراسة الجسد، انظر: (عبد العظيم، ٢٠٠٨).

أولاً: سوسيولوجيا بورديو: استيعاب الموروث الكلاسيكي وتجاوزه

ربما يُعدّ بورديو المنظّر الاجتماعي الأكثر تأثيراً خلال النصف الثاني من القرن العشرين، فعلى مدار ما يزيد على ثلاثين عاماً أنجز باقتدار «سبلاً متدفقاً» من المطبوعات، طوّر من خلالها رؤيته الخاصة بنظرية الممارسة (Practice Theory) التي لم تؤثر في علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فقط، وإنما امتد تأثيرها إلى الباحثين في تخصصات إنسانية عديدة أخرى (Troop and Murphy, 2002: 185).

والحقيقة أن تأثير بورديو لا يرجع فقط إلى إبداعاته المتميّزة والمدهشة، وإنما أيضاً إلى أن أعماله تمثل مرجعاً مستمراً ومقبولاً لدى طائفة كبيرة من المفكرين. ومع أن أعماله الأولى تدخل في إطار الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، إلا أنه وسّع مشروعه الفكري ليتضمّن الفلسفة وعلم النفس والنقد الثقافي (Cultural Criticism) ودراسات النوع (Gender) وعلم اللغة والاقتصاد، كما أنه انشغل خلال العقدين الأخيرين من حياته بالمجال السياسي، واشتهر بتقديم جملة من المفاهيم السوسيولوجية المهمة التي حازت مشروعية علمية واسعة (Preebles, 2008: 358).

وقد حدّد بورديو مشروعه النظري بأنه عبارة عن «توليفات» لإسهامات قام بها فلاسفة وعلماء اجتماع، وتمثل هذه التوليفات النتائج الأساسية لفكر ماركس ودوركايم وفيبر، ورغم أن هذه النتائج قد تبدو للوهلة الأولى وكأنها غير متوافقة معاً، إلا أن بورديو يقرر أن العمل العلمي لا يهدف إلى محاولة التميّز والاختلاف عمّا فعله مفكرو الماضي من أجل إعلان التفرد والخصوصية، وإنما يتمثل في تجميع النتائج التي توصّلوا إليها، ليس بطريقة تليفقية، وإنما عن طريق تجاوز التناقضات الموجودة في ما بينها، فهذه التناقضات ناتجة من وجهات النظر التي يكوّنونها عن العالم الاجتماعي، بحيث إن كلاً منهم يظلّ أسيراً لوجهة نظره، أي للقضايا التي شكّلت من خلالها رؤيته للواقع الاجتماعي (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ٧٦).

كما حاول بورديو أن يوائم بين رؤى ماركس وأفكار دوركايم ومفاهيم فيبر من أجل طرح فهم جديد للواقع، وتقديم طريقة جديدة لتحليل المجتمع. إنه لم يستعن بهذه المواءمة في صياغة نظريته فقط، وإنما اهتدى بها في بحوثه الميدانية أيضاً، ومن خلال تلك المواءمة غطّى إنتاجه الفكري مناطق بحثية واسعة ومتنوعة، تضمّن مثلاً التربية والعمل والقراءة والتطور الاقتصادي وفلسفة اللغة والأدب والتصوير والمتاحف والجامعات والقانون والدين والعلم (Ozturk, 2005: 143).

اعتمد بورديو على ماركس في تأكيد أهمية الطبقة، باعتبارها وحدة أساسية للتحليل، كما استمدّ منه التشديد على أهمية الأنشطة العلمية التي تسهم في إنتاج وإعادة إنتاج الحياة الاجتماعية، بالإضافة إلى تبنيّه الفكرة الماركسية المعروفة، وهي أن الوجود الاجتماعي (Social Being) هو المحدد للوعي. وأخذ من دوركايم فكرة المطابقة بين البنى الاجتماعية والبنى الرمزية، ولذا يتشابه إلى حدّ كبير ما توصل إليه دوركايم في نهاية كتابه *الصور الأولية للحياة الدينية* مع خاتمة بورديو في كتاب *التمييز* (Distinction)،

وخاصة دراسته حول «الصور الأولية للحياة الثقافية»، من حيث إن البنى العقلية التي تحاول فهم الواقع الاجتماعي يتمثلها (Internalized) الأفراد، بحيث تعبر عن بنى اجتماعية راسخة ومنظمة. كما اعتمد بورديو على دوركهايم في تأكيد الوظائف الاجتماعية والعقلية للتصورات الجمعية، ونظم التدرج الأولية، رغم أن بورديو أدرك ذلك باعتبارها وظائف للسيطرة، بينما فهمها دوركهايم باعتبارها وظائف للتكامل الاجتماعي والمنطقي، ومعنى ذلك أن بورديو حاول إحياء جهود دوركهايم لبناء نظرية سوسيولوجية في المعرفة، وفهم وإدراك الواقع الاجتماعي (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ٧٧).

واستلهم بورديو من فيبر فكرة الوظائف الاجتماعية للسلع الرمزية، وطوّر، من خلال ملاحظات فيبر عن الكاريزما (Charisma) والشرعية، نظرية في القوة الرمزية وعلاقتها بالقوى الاقتصادية والسياسية، وشيد من خلال أفكار فيبر عن السلع الرمزية ومفاهيمه في علم الاجتماع الديني نظرية عامة في اقتصاديات السلع الرمزية وعلاقتها بالاقتصاد المادي (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ٧٦).

والواقع أن سوسيولوجيا بورديو كانت ترمي إلى الإسهام في تجاوز أزمة علم الاجتماع التي عايشها خلال ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، فحتى هذه الفترة كانت النظرية السوسيولوجية تسير في اتجاهين منفصلين: اتجاه يركّز على المستوى المجتمعي والعلاقات القائمة بين أجزاء المجتمع المختلفة (أي التركيز على مفهوم البناء)، واتجاه يهتم بمستوى الأفراد الفاعلين (أي الاهتمام بالفعل). وقد حاول بورديو تجاوز تلك المشكلة من خلال تأسيس نظرية وسطى تعمل على التغلب على الثنائية المتعسفة بين الفرد (النزعة الذاتية) والمجتمع (النزعة الموضوعية)، ومن أجل تحقيق ذلك أبدع العديد من المفاهيم المهمة، كالهابيتوس والحقل وغيرهما (Ernest, 2006: 3).

ويؤكد بورديو أن هدف علم الاجتماع هو الكشف عن المعاني المتضمنة في الفعل الاجتماعي، ويرى أن ثمة مكونين رئيسيين في هذا الفعل: الفاعل (Agent)، والبناء (Structure)، وثمة تفاعلاً وترابطاً وثيقاً بين المكونين. ويقول بورديو إن العالم الاجتماعي يتشكّل من مجموعة من البنى الموضوعية، كالثقافة واللغة ... إلخ. هذه البنى تتشكّل من خلال عدد من الفاعلين، وعندما تتشكّل هذه البنى فإنها تؤثر في الأفعال التي يقوم بها الفاعلون. بعبارة أخرى، هناك مستويان في العالم الاجتماعي:

١ - المستوى الموضوعي الذي يتكوّن من البنى المادية والنظم الاجتماعية المختلفة وكل أشكال رأس المال: الاقتصادي، والثقافي، والاجتماعي ... إلخ.

٢ - المستوى الذاتي الذي يتضمّن الأشكال الجسدية والعقلية التي تعمل كمنظومة رمزية تشتمل على الأنشطة العملية، وطرق التفكير، والمشاعر والأحكام الاجتماعية والفردية (Ernest, 2006: 4).

وتأسيساً على ما سبق، يمكن القول إن بورديو أراد أن يقدم سوسيولوجيا جديدة مغايرة للتراث الكلاسيكي، من أجل تجاوز الأزمة التي عايشها علم الاجتماع، وذلك من خلال إعادة قراءة التراث السوسيولوجي - خاصة ما طرحه الآباء المؤسسون - ثم صياغة عملية

توفيقية بحيث تستثمر المقولات الإيجابية في هذا التراث، وتتلافى التناقضات الموجودة فيه، وأبرزها: التناقض بين الموضوعية والذاتية. فقد طوّر المفاهيم التي طرحها ماركس، واستبعد القضايا المحافظة «الوضعية» التي قدمها دوركهايم، واستمدّ من فيبر بعض الرؤى النظرية التي أعاد صياغتها بطريقة مبدعة. لقد أراد بورديو أن يقدم «سوسيولوجيا ناقدة» لكل المقولات الكلاسيكية و«فاعلة» للكشف عن أبعاد الواقع الاجتماعي، بما يتضمّنه من أشكال للصراع والهيمنة والتمايز بين مختلف الفئات الاجتماعية.

والحقيقة أن ثمة دلائل (Notations) أربع تؤشر على تميّز المشروع النظري (Waquant, 2006: 4) لبير بورديو:

١ – يتصف تصور بورديو للفعل والبناء الاجتماعي والمعرفة بأنه مضاد للثنائية (Anti-dualistic)، فهو يجاهد دوماً من أجل أن يفكّك (Dissolve) التعارضات السائدة في أدبيات العلوم الاجتماعية، مثل التعارض بين الذاتية والموضوعية، والتعارض بين الأبعاد المادية والرمزية للحياة الاجتماعية، والتعارض بين التأويل (Interpretation) والتفسير (Explanation)، وبين التزامن والتعاقب التاريخي، وبين المستويات الكبرى (Macro) والصغرى (Micro) للتحليل.

٢ – يمثل الفكر العلمي لبورديو عملاً توفيقياً أو تركيبياً (Synthetic) بارعاً، حيث جمع بين عناصر نظرية ومنهجية تبدو ظاهرياً متباعدة. فعلى المستوى النظري، جمع بين تيارات فكرية تعتبرها التقاليد الأكاديمية متنافرة (Discordant): ماركس، موس، دوركهايم، فيبر، وهو يجمع أيضاً بين فلسفات متعارضة، مثل فينونولوجيا ميرلوبونتي وشونز، ونظريات اللغة لدى سوسير (Saussure) وتشومسكي (Chomsky). وعلى المستوى المنهجي، استطاع بورديو أن يجمع بين الأدوات المنهجية الإحصائية التي تقوم على الملاحظة المباشرة من جهة، والأدوات الكيفية، كتحليل الخطاب والوثائق وعمليات التفاعل الاجتماعي.

٣ – يرى بورديو المجتمع من منظور صراعي (Agonistic)، فالواقع الاجتماعي، وفق رؤية بورديو، هو موقع للمنافسة اللانهائية والقاسية، حيث يظهر فيه، ومن خلاله، التباينات التي تمثل جوهر الوجود الاجتماعي. إن الصراع، وليس السكون، هو السمة الحاضرة دوماً في الحياة الاجتماعية، ولقد كان الهدف الأساسي لأبحاث بورديو المتنوعة هو الكشف عن ذلك الصراع الذي كان يمثل المفهوم المحوري في فكره.

٤ – ارتكزت الأنثروبولوجيا الفلسفية عند بورديو على مفهوم المعرفة والإدراك (Recognition)، وليس مفهوم المصلحة، فخلافاً للقراءة المغلوطة الشائعة لفكره لم يكن هذا الفكر نظرية نفعية للفعل الاجتماعي، حيث يعمل الأفراد بوعي من أجل تراكم الثروة والمكانة والقوة. فاتفقاً مع بليز باسكال، يؤكد بورديو أن الهدف النهائي للسلوك هو تحقيق الكرامة، والمجتمع وحده هو الذي يمكنه أن يحققها.

والحقيقة أن تميّز المشروع النظري لبورديو لا يقتصر فقط على الدلائل الأربع السابقة، وإنما يمكن إضافة إلى ذلك القول إن هذا المشروع اتسم بسمّة الشمولية والموسوعية، حيث تطرّق إلى قضايا عديدة، وولج مناطق شتى لم يعهد لها علم الاجتماع قبله، أو على الأقل لم تكن مطروحة في الوعي السوسيولوجي بصورة واضحة.

فقد تضمّنت أنشطته الفكرية علم اجتماع التربية والفن وقضايا المثقفين وسوسيولوجيا السلع الرمزية (Sociology of Symbolic Goods) (كالدين والعلم والأدب والرسم والنشر)، بالإضافة إلى تحليله المتميّز لقضايا الهيمنة الذكورية، والمعاناة الاجتماعية، والتطور التاريخي، والوظائف المعاصرة للدولة البيروقراطية، والأسس الاجتماعية والرمزية، والبناء السياسي للاقتصاد، ودراسة الصحافة والتلفزيون، والعوامل المؤثرة في تشكيل السياسة الاجتماعية الأوروبية، وقدم نقداً للعقل الأوروبي المدرسي (Scholastic)، وطرح أيضاً حلاً سوسيولوجياً للثنائيات العقلية المعروفة، وكان مشغولاً بحوار مكثف مع النظم المعرفية الوثيقة الصلة بعلم الاجتماع، ولكنه لم يكن غائباً عن قضايا علم الاجتماع وإشكالياته (Waquant, 2006: 2-3).

ويمثّل الجسد إحدى المناطق المهمة في فكر بورديو، حيث ساهم في صياغة وتأسيس سوسيولوجيا الجسد، وتمثّل سوسيولوجيا الجسد فرعاً مهماً وواعداً من مجالات الدراسة في علم الاجتماع، وسوف نتناول إسهام بورديو في سوسيولوجيا الجسد في المبحث الثالث.

وبالإضافة إلى القضايا والموضوعات الجديدة التي طرحها بورديو، يتميّز مشروعه النظري بصياغة مفاهيم جديدة أسهمت في إثراء النظرية السوسيولوجية، وأسهمت بالتالي – من خلال ما تتضمّنه من إمكانيات منهجية وتحليلية – في تعميق التحليل السوسيولوجي واتساع آفاقه، وبالتالي عملت هذه المفاهيم على تعالج في علم الاجتماع من أزمته.

ثانياً: المفاهيم الأساسية في نظرية بورديو

طرح بورديو منظومة مفهومية جديدة (New Terminology) تركز عليها رؤيته للواقع، وهي رؤية مغايرة في كثير من جوانبها للرؤية الكلاسيكية في علم الاجتماع.

فمن خلال سبعة وثلاثين كتاباً وما يناهز الأربعمئة مقالة، قدم بورديو مصطلحات فنية صعبة تبدو للوهلة الأولى غامضة وصعبة المراس (Intractable)، بيد أن خلف هذه المفاهيم والمصطلحات المتنوعة والمربكة تكمن منظومة من المبادئ النظرية والأدوات التصوّرية والمقاصد العلمية والسياسية، التي تمنح كتابات بورديو تماسكاً وانتظاماً ملحوظاً (Waquant, 2006: 4).

لقد أعاد بورديو قراءة المفاهيم الكلاسيكية في علم الاجتماع، فأضفى عليها أبعاداً جديدة، ومنحها آفاقاً سوسيولوجية أكثر اتساعاً، كما أنه قام بصياغة مفاهيم جديدة أسهمت في إثراء المعجم السوسيولوجي، ومن ثم تطوير النظرية في علم الاجتماع. وسوف نناقش في هذا السياق أهم هذه المفاهيم.

١ - الهابيتوس (Habitus)

يمثل الهابيتوس مفهوماً حاكماً في المشروع النظري لبير بورديو، وقد ظهر في أعماله المبكرة، وقدم في كتاباته المختلفة تعريفات لا حصر لها، وصياغات متنوعة لهذا المفهوم، تعكس عمق تحليلاته وخصوصية تصوّراته النظرية (Troop and Murphy, 2002: 186-187).

لقد أراد بورديو من خلال صياغة هذا المفهوم أن يتجاوز ذلك التعارض العميق بين الموضوعية والذاتية، الذي يمثل عقبة في سبيل تطور علم الاجتماع وانطلاقه إلى آفاق أوسع. فالنزعة الموضوعية تفترض أن الواقع الاجتماعي يتكون من مجموعة من العلاقات والقوى التي تفرض نفسها على الفاعلين، ولا تلتفت بحال من الأحوال إلى إرادة هؤلاء الفاعلين ووعيمهم. واستناداً إلى ذلك، ينبغي على علم الاجتماع أن يقتضي أثر دوركهايم في إدراك الظواهر الاجتماعية كأشياء، والتركيز على النظم «الموضوعية» التي تحدّد سلوك الأفراد واستجاباتهم، وعلى النقيض من ذلك تأخذ النزعة الذاتية من هذه الاستجابات أساساً لها، فوفقاً لهربرت بلومر (H. Blumer) وهارولد غارفنكيل، ليس الواقع الاجتماعي إلا العدد الكلي من التفسيرات اللامتناهية للأحداث، حيث يتفاعل الأفراد وفق المعاني المتفق عليها (Waquant, 2006: 6).

يعتقد بورديو أن التعارض بين الموضوعية والذاتية هو أمر مصطنع ومشوّه (Mutlating)، فثمة علاقة جدلية بين الموضوعية والذاتية، ولذا ينبغي أن يصيغ علماء الاجتماع توليفاً (Synthesis) بين الموضوعية والذاتية. ومن أجل تحقيق ذلك، فقد صك بورديو ترسنة مفاهيمية (Conceptual Arsenal) يأتي الهاييتوس في مقدمتها (Waquant, 2006: 6).

يقول بورديو: «لقد طورت مفهوم الهاييتوس للدمج بين البنى الموضوعية للمجتمع والأدوار الذاتية للأفراد الذين يعيشون فيه. إن الهاييتوس هو مجموعة من الاستعدادات وصور من السلوك يكتسبها الأفراد من خلال التفاعل في المجتمع، ويعكس المفهوم مختلف الأوضاع التي يشغلها الناس في مجتمعاتهم» (Siisänen, 2000).

فالهاييتوس هو نظام من الخطط الواعية وغير الواعية في التفكير والإدراك والاستعدادات التي تعمل كوسيط بين البنى «الموضوعية» والممارسة... ويفسر الهاييتوس عملية إعادة انتاج الهيمنة الاجتماعية والثقافية، لأن الأفكار والأفعال التي يولدها تتواءم مع النظم الموضوعية أو النظم التي يمكن ملاحظتها إمبيريقياً في الواقع الاجتماعي (Mander, 1987: 428).

وبذلك، فإن مصطلح الهاييتوس يستخدم في الدلالة على مجموع الاستعدادات الجسدية والذهنية الدائمة التي تترتب على عملية التنشئة الاجتماعية للفرد، والتي تجعل منه فاعلاً اجتماعياً (Social Agent) في إطار حقل أو مجال اجتماعي معيّن. وتعمل هذه الاستعدادات، باعتبارها نظاماً للخطط المولدة (Generative)، فهي مولدة لاستراتيجيات تكون مطابقة على نحو موضوعي لمصالح مؤلفيها، وتتشكّل الاستعدادات من خلال تصور فئة معينة من الأفراد وتشرّبهم لنمط معيّن من أنماط الوجود. ولذلك يتوسط مفهوم الهاييتوس بين البنى الموضوعية والممارسات، لأن وظيفته هي أن يتجاوز التعارض بين الوعي واللاوعي، بحيث يمكن القول إن الواقع الاجتماعي يوجد مرتين: في الأشياء وفي الأذهان، في الحقول وفي الهاييتوس، خارج الفاعلين وداخلهم، ونتيجة لذلك يعبر الهاييتوس عن مواقف يتم فيها استدماج الواقع الخارجي بالنسبة إلى الفرد، والتجسيد الخارجي لذاتية ذلك الفرد (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ١٠٥ - ١٠٦).

إن ثمة علاقة تبادلية بين قدرات الفرد واستعداداته (كما تتجلى في ممارساته) من جهة، والبناء الاجتماعي من جهة أخرى، فالهابيتوس، كمجموعة من البنى المعرفية والإدراكية المستدمجة، يتم إنتاجه في بيئة اجتماعية محدّدة، وهذه البيئة يعاد إنتاجها من خلال قدرة الهابيتوس على التوليد (Generativity) (Troop and Murphy, 2002: 187).

واستناداً إلى ما سبق، فإن الهابيتوس ليس مرتبطاً بتصورات الأفراد وخصائصهم واتجاهاتهم الشخصية فقط، ولكنه مرتبط أيضاً بالاستعدادات الجمعية، مثل أنماط التفكير، والإدراك، والتقدير، والممارسة. لذلك، فإن الهابيتوس يؤثر في الأفعال اليومية، مثل التدوُّق، والملابس، والأثاث، والفن، وعادات الاستهلاك، وأنشطة وقت الفراغ، لأنه نتاج ظروفه الموضوعية ذاتها (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ١٠٦).

ويرتبط الهابيتوس برأس المال، حيث إن الهابيتوس الخاص بالشرائح الثقافية والاجتماعية المهيمنة يتفاعل كطرف مكمل مع الأنواع المختلفة لرأس المال، ليشكل في الواقع شكلاً من رأس المال الرمزي، يمكن التعبير عنه بالصيغة التالية:

هابيتوس + رأس مال اجتماعي وثقافي = رأس مال رمزي (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ١٠٨).

٢ - رأس المال (Capital)

يمثل رأس المال مفهوماً مركزياً آخر في المشروع النظري لبورديو، والمفهوم مستمدّ أساساً - كما هو معروف - من علم الاقتصاد الكلاسيكي، ويعني الثروة المتراكمة، ويستخدم في النظرية الماركسية للإشارة إلى العلاقة بين مالكي وسائل الإنتاج وبائعي قوة العمل. أما بورديو، فقد وسّع فكرة رأس المال المطروحة في علم الاقتصاد، وفي النظرية الماركسية، بحيث أصبح يتضمن رأس المال النقدي وغير النقدي، كما يشمل على الصور المادية الملموسة أو الصور اللامادية (غير الملموسة) (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ٩٧).

إن استخدام بورديو لمفهوم رأس المال لا يقتصر فقط على البعد الاقتصادي «الكلاسيكي»، وإنما يتجاوز ذلك إلى أبعاد أخرى متنوعة. فهناك عدة صور لرأس المال، مثل رأس المال الثقافي، ورأس المال الاجتماعي، ورأس المال الرمزي، وتعكس تلك الرؤية لرأس المال تفسيراً متعدد الأبعاد للظواهر الاجتماعية، فهو يرى أن العالم الاجتماعي يمكن إدراكه كفضاء متعدد الأبعاد (Multi-dimensional Space) يتشكل واقعياً من خلال الهيمنة على الأشكال المتنوعة لرأس المال. إن رأس المال الاقتصادي يرتبط مباشرة بالثروة، أما الأشكال الأخرى لرأس المال فتتمثل صورة من صور القوة في المجتمع (Ozturk, 2005: 147).

وعلى الرغم من أن هذه الأشكال من رأس المال تعدّ أقل وضوحاً من رأس المال الاقتصادي، إلا أنها تشترك معه في العديد من السمات، فهي تمثل قيمة لحاملها، وتتصف بالتركمية، ويمكن - وهذا هو الأهم - أن تستثمر، بحيث يمكن أن تنتج منافع أو مزايا أخرى. ويرى بورديو أن الصور غير الاقتصادية لرأس المال تلفت الانتباه إلى أشكال أخرى خفية من إعادة إنتاج التفاوت الاجتماعي (Social Inequality) (Turner, 2006: 558).

يتميز بورديو، إذن، بين عدة أشكال لرأس المال، مغايرة لرأس المال الاقتصادي، هي:

أ - رأس المال الثقافي

يعبّر مفهوم رأس المال الثقافي (Cultural Capital) عن مجموعة من الرموز والمهارات والقدرات (Competences) الثقافية واللغوية والمعاني التي تمثل الثقافة السائدة، والتي اختيرت لكونها جديرة بإعادة إنتاجها واستمرارها ونقلها خلال العملية التربوية. ويركز هذا المفهوم على أشكال المعرفة الثقافية والاستعدادات التي تعبّر عن رموز داخلية مستدمجة تعمل على إعداد الفرد للتفاعل بإيجابية مع مواقف التنافس وتفسير العلاقات والأحداث الثقافية (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ٩٩).

ويقترّر بورديو أن رأس المال الثقافي يتشكّل من خلال الإلمام والاعتیاد على الثقافة السائدة في المجتمع، وخاصة القدرة على فهم واستخدام لغة راقية (Educated Language)، ويؤكد أن امتلاك رأس المال الثقافي يختلف باختلاف الطبقات. ولهذا، فإن النظام التعليمي يدعم امتلاك هذا النمط من رأس المال، وهذا يجعل من الصعوبة بمكان على معظم أفراد الطبقة الدنيا النجاح في هذا النظام (Sullivan, 2000: 893).

ويوجد رأس المال الثقافي في أشكال متنوعة، حيث يشمل الميول والنزعات الراسخة والعادات المكتسبة من عمليات التنشئة الاجتماعية، كما يمثل إمبيريقياً في أشكال موضوعية، مثل الكتب والأعمال الفنية والأدبية، والشهادات العلمية، وفي مجموعة من الممارسات الثقافية، مثل زيارة المتاحف، وارتياح المسارح، وحضور الندوات، وغير ذلك من ممارسات مختلفة في مجال الثقافة، ومن ثم ينتج رأس المال الثقافي ويوزع ويستهلك في مجال خاص به، وهو مجال الثقافة، وهو مجال فكري متخصص له منطقه الخاص وعملياته المميّزة، وله مؤسساته الخاصة، مثل النظم التعليمية، والجمعيات العلمية، والدوريات، وله هويته وأيديولوجيته في التبعية والاستقلال عن المجالات الاجتماعية الأخرى، كالاقتصاد والسياسة (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ١٠٠).

ويذهب بورديو إلى أن رأس المال الثقافي ينقسم إلى قسمين: القسم الأول هو رأس المال الثقافي المكتسب على أساس المؤهل التعليمي، وعدد سنوات الدراسة، والثاني هو رأس المال المورث من وضع العائلة وعلاقاتها بالمجالات الثقافية المختلفة، ويحقق الشكل الأخير أرباحاً مباشرة في المحل الأول داخل النظام التعليمي، كما أنه يحقق تلك الأرباح في أماكن أخرى، مثل سوق العمل، بالإضافة إلى أنه يحقق مكاسب التميّز للفرد في كافة المجالات (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ٩٩).

ويتشكّل رأس المال الثقافي المورث من خلال منح العائلات لأبنائها مجموعة من أنماط الحياة المميّزة، وشبكة من العلاقات الاجتماعية القوية، التي تصبح شكلاً من التميّز تستفيد منه الأجيال التالية. إن ثمة اتجاهات لدى هذه العائلات نحو صياغة سلوك أفرادها، وتشكيل قيمهم على مدار الأجيال. ويتم ذلك من خلال بعض الممارسات، مثل نمط التعامل الراقى، والتأهيل العلمي والأخلاقي، وتدعيم عادات فردية معينة، وتشكيل نمط حياة مختلفة، ومستوى معيشي مغاير، ويسهم كل ذلك في تعميق الاختلافات الطبقيّة للمجتمع (O'Hara, 2008: 189).

أما رأس المال الثقافي المكتسب، فيتوقف اكتسابه على بعض العوامل، مثل الفترة الزمنية، وطبيعة المجتمع، والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد، بالإضافة إلى القدرات الذاتية، والسمات الجسدية للفرد. وثمة ترابط بين رأس المال الثقافي المورث والمكتسب، حيث يمكن للفرد أن يطور رأس المال الثقافي المورث من خلال قدراته العضوية (Bourdieu, 1986: 4).

يتضح مما سبق أن رأس المال الثقافي لدى بورديو يعبر عن القدرات والمهارات العقلية والجسدية، وكل أشكال المعرفة والخبرات التي يتحصّل عليها الفرد، إما نتيجة انتسابه إلى عائلة أو جماعة معينة، أو نتيجة لمؤهلاته الذاتية وتنميتها وتطويرها. ويرى بورديو أن الجسد يمثل جزءاً من رأس المال الطبيعي الذي يعدّ بدوره جزءاً من رأس المال الثقافي، وهذا ما سنوضحه بالتفصيل في المبحث الثالث.

ب - رأس المال الاجتماعي

يعني رأس المال الاجتماعي (Social Capital) - بصورة عامة - أن العلاقات التي يكونها الأفراد تمثل مصدراً قوياً للحصول على منافع وأرباح، ولذلك فإن هذا النمط من رأس المال يتشكل من العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين الأفراد والأسر والجماعات، بحيث تتيح هذه العلاقات الفرصة للوصول إلى فوائد أو موارد قيّمة (Koniordos, 2008: 564 and Turner, 2006: 557).

يعرّف بورديو رأس المال الاجتماعي بأنه كمّ الموارد الواقعية أو المحتملة التي يتم الحصول عليها من خلال امتلاك شبكة من العلاقات الدائمة المرتكزة على الفهم والوعي المتبادل، وذلك في إطار الانطواء تحت لواء جماعة معيّنة، فالانتماء إلى جماعة ما يمنح كل عضو من أعضائها سنداً (Backing) من الثقة والأمان الجماعي (Bourdieu, 1986: 247).

ويعتمد حجم رأس المال الاجتماعي الذي يتحصّل عليه فاعل معين على حجم شبكة العلاقات التي يمكنه إدارتها بكفاءة، ويعتمد كذلك على كمّ رؤوس الأموال الأخرى، كرؤوس الأموال الثقافية والرمزية والاقتصادية التي يمتلكها الفاعلون الآخرون المشاركون في شبكة العلاقات (Bourdieu, 1986: 247).

وتستلزم عملية إعادة إنتاج رأس المال الاجتماعي حدّاً أدنى من التجانس الموضوعي (A Minimum of Objective Homogeneity) بين أعضاء الجماعة، كما تستلزم جهداً متواصلاً للحفاظ على تماسك الجماعة وتضامنها، وتستلزم كذلك مزيداً من الإدراك والوعي المتبادل بين أعضاء الجماعة أيّاً كان شكلها (أسرة - أمة - جماعة أو حزباً سياسياً) (Bourdieu, 1986: 248-249).

يتضح، إذن، أن بورديو يؤكد أن مفهوم رأس المال الاجتماعي يشير إلى الموارد (Resources) التي يمتلكها الأفراد، سواء أكانت موارد كمية أم كيفية، والتي يمكن أن تستخدم بطريقة استراتيجية للحصول على مزايا وموارد أخرى، اقتصادية على وجه الخصوص. ولذلك، فإن رأس المال الاجتماعي يمثل قوة (Power) تساعد على خلق وترسيخ مزايا اجتماعية للفاعلين (Turner, 2006: 558).

ولقد أسهمت رؤية بورديو لرأس المال الاجتماعي في إثارة العديد من الأفكار والأطروحات حوله، وأصبح أداة منهجية يستخدمها الباحثون في مختلف العلوم الاجتماعية، فيرى وليم والترز (Walters, 2002: 379) أن علماء الاجتماع يستخدمون هذا المصطلح بصورة نمطية للإشارة إلى قدرة الفاعلين (Actors) على الحصول على منافع (Benefits) بموجب عضويتهم في الشبكات الاجتماعية (Social Networks) أو أية كيانات اجتماعية أخرى. ويستخدم علماء السياسة المفهوم بطريقة مغايرة - وإن كانت تتفق بشكل عام مع تصوّر بورديو - إذ إنهم يعتبرون رأس المال الاجتماعي سمة للمجتمعات والأمم، وليس للأفراد فقط، بمعنى أن رأس المال الاجتماعي يشير إلى السمات الموجودة في التنظيم الاجتماعي، كالثقة (Trust)، والمعيارية، والترابط، التي تيسّر الفعل الاجتماعي وتنظّمه، مما يسهم في رفع كفاءة البناء الاجتماعي.

ويوجد الآن العديد من الاتجاهات المثمرة للبحث الإمبريقي التي استوحت، أو على الأقل تأثرت، بنموذج بورديو في رأس المال الاجتماعي. وقد قدم أحد هذه الاتجاهات دليلاً قوياً على الارتباط بين رأس المال الاجتماعي، والحصول على وظائف أفضل، والترقي المهني المبكر، والأرباح العالية، والرعاية الصحية العضوية والنفسية، وكشف اتجاه آخر من هذه البحوث عن أن نقص رأس المال الاجتماعي قد فاقم مشكلات الفقراء. إن الإقصاء الاجتماعي، وهو أحد أشكال نقص رأس المال الاجتماعي، يؤدي بالأفراد والأسر، وكل الجماعات غير المستفيدة من الامتيازات الاجتماعية، إلى السقوط في دائرة الفقر. وأخيراً، يمكن القول إن رؤية بورديو تقدم فهماً أفضل لفوائد شبكة العلاقات والاتصالات بمالكي رأس المال الاجتماعي في الحصول على فوائد مهمة في مواقع اجتماعية متنوعة، خاصة عملية التوظيف (Turner, 2006: 558).

ج - رأس المال الرمزي

يقصد برأس المال الرمزي (Symbolic Capital) الموارد المتاحة للفرد نتيجة امتلاكه سمات محددة، كالشرف (Honor)، والهيبة (Prestige)، والسمعة الطيبة (Renown)، والسيرة الحسنة (Reputation)، التي يتم إدراكها وتقييمها من جانب أفراد المجتمع (Bourdieu, 1985: 197).

ويرى بورديو أن رأس المال الرمزي هو مثل أية ملكية أو أي نوع من رأس المال - طبيعي، اقتصادي، ثقافي، اجتماعي - يكون مدركاً من جانب فاعلين اجتماعيين، تسمح لهم مقولات إدراكهم بمعرفتها والإقرار بها، ومنحها قيمة (مثل الشرف في مجتمعات البحر المتوسط هو صيغة نمطية من رأس المال الرمزي، لا توجد إلا عبر السمعة، أي التمثيل الذي يقوم به الآخرون في حالة اشتراكهم في مجموعة معتقدات خاصة تجعلهم يدركون ويقيمون خصائص معينة، وأنواعاً من السلوك إذا كانت شريفة أو مخلة بالشرف) (بورديو، ١٩٩٨: ١٣٦).

ويدخل رأس المال الرمزي مختلف الحقول والمجالات، ومختلف أشكال السلطة والهيمنة، ويتمثل في مختلف أشكال العلاقات الاجتماعية، فكل علاقة اجتماعية هي علاقة سلطة - بشكل ما - تتضمن رأس المال الرمزي، فخاصية الشرف - التي ذكرناها سابقاً - تحمل معاني أخلاقية محددة، بحيث إن من يملك خصائص الشرف - كالتقييم والمعتقدات

والتصرفات - يعدّ شريفاً، ومن لا يملكها لا يعدّ كذلك. ويكون الشخص الشريف موضع احترام وثقة وتقدير، تبعاً لما يملكه من رأس مال رمزي، ومن ثم يرتبط رأس المال الرمزي بأهمية الموقع الذي يشغله الفرد في الفضاء الاجتماعي من جهة، وبالقيمة التي يضيفها الناس عليه من جهة أخرى، وتتعلق هذه القيمة بأنظمة استعدادات الأشخاص وتصوراتهم المتوافقة مع البنى الموضوعية القائمة (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ١٠٤).

ويرتكز رأس المال الرمزي على الذئوع والانتشار (Publicity)، والاستحسان (Appreciation). إنه يرتبط بالهيبة والسمعة والشرف، التي تلاقي تقديرًا من الآخرين. ويمكن اعتبار رأس المال الرمزي رأس مال من الشرف والهيبة (Capital of Honor and Prestige). ويتطلب تراكم هذا الشكل من رأس المال جهداً متواصلًا من أجل الحفاظ على العلاقات التي تؤدي إلى الاستثمار المادي والرمزي له (Fuchs, 2003: 392).

لقد طوّر بورديو مفهوم رأس المال الرمزي باعتباره يمثل شكلاً خاصاً من رأس المال يتجاوز من خلاله المفهوم الماركسي لرأس المال، ففي حين ركّزت الماركسية على أهمية العوامل الاقتصادية باعتبارها محددات للممارسات الاجتماعية، حاول بورديو إبراز البعد الرمزي في فهم إدراك السلوك الإنساني، وخاصة في دراساته في شمال أفريقيا، حيث يكون البعد الرمزي أكثر أهمية. ويؤكد بورديو أنه لا يوجد شيء يخلو من البعد الرمزي (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ١٠٥).

إن أهم ما يميّز تصوّر بورديو من الأشكال «الأصولية» (Orthodox Forms) للماركسية هو أنه لم يختزل كل صور الحياة الاجتماعية في البعد الاقتصادي. إنه يرى أن هناك تسانداً وتفاعلاً بين الأبعاد السياسية والرمزية والثقافية والاقتصادية، ويعتقد أننا إذا سلّمنا بوجود استقلال كامل بين هذه المجالات، فسوف ننتج نظرة ثنائية حادة وخاطئة لكل أنظمة المجتمع، وبالتالي يقترح بورديو أنه ينبغي التخلي نهائياً عن تلك الثنائية الكلاسيكية: اقتصادي - غير اقتصادي (Fuchs, 2003: 391-392).

٣ - العنف الرمزي

ظهر مفهوم العنف الرمزي (Symbolic Violence) في كتابات بورديو المبكرة بداية من عام ١٩٧٢ من خلال كتاب إطار نظرية الممارسة (Outline of Theory of Practice)، غير أنه في كتاب الهيمنة الذكورية (Masculine Domination) الذي أصدره في عام ١٩٩٠ أسهب في شرح الجوانب التحليلية للمفهوم (Krais, 2006: 121).

يعرّف بورديو العنف الرمزي بأنه القدرة على فرض دلالات ومعاني معيّنة بوصفها دلالات ومعاني شرعية، وإخفاء علاقات القوة التي تمثل الأساس الذي تركز عليه هذه القدرة. وينطبق المفهوم على أي تكوين اجتماعي يتم إدراكه كنسق للقوة. وتعدّ التربية بكل تجلياتها: في المنزل، وفي العمل، وفي المدرسة، وفي الإعلام، مصدراً للعنف الرمزي (Mander, 1987: 432).

ويدل بورديو على العنف الرمزي بمثال مهم آخر، وهو ما يعرف بالهيمنة الذكورية. إنه يعتقد أن هذه الهيمنة تمثل شكلاً نموذجياً (Paradigmatic Form) للعنف الرمزي، ويتسم

العنف الرمزي المرتبط بالهيمنة الذكورية – بمعنى ما – بأنه غير مرئي (Invisible)، وغير ملحوظ، بحيث يبدو وكأنه جزء من طبيعة الأشياء المستقرّة، حتى إن المرأة، وهي المضطّهدة، قد لا تشعر أنها في مرتبة أدنى (Inferior) من الرجل (Krais, 2006: 122).

يتضح مما سبق أن العنف الرمزي، وفق ما يراه بورديو، يتضمن كل أنماط الهيمنة الاجتماعية والثقافية، وقد لا يتم إدراك تلك الهيمنة بصورة مباشرة، فمن سمات العنف الرمزي أنه هيمنة غير ملحوظة (أو خفية (Tacit)). ويرى بورديو أن النظام التربوي والهيمنة الذكورية يمثلان صورة واضحة للعنف الرمزي في المجتمع المعاصر.

ثالثاً: الجسد في فكر بورديو

تشغل دراسات الجسد مكانة مهمة ومتنامية في علم الاجتماع – وفي غيره من العلوم الاجتماعية والإنسانيات – منذ ثمانينيات القرن الماضي. هذه النهضة في الاهتمام بالجسد لم تؤد فقط إلى تأسيس منطقة بيئية زاهرة لدراسات الجسد، وإنما أدت كذلك إلى تسريع عملية إعادة بناء النظم المعرفية – الأساسية والفرعية – التي تعمل على تحليل أكثر مواءمة للطبيعة الجسدية والنتائج المتعلقة بها. ولقد كانت هذه النهضة مسؤولة أيضاً عن تحول في الاهتمام الأساسي للنظرية الاجتماعية (Shilling, 2005: 761).

وقد أسهم بورديو إسهاماً فعالاً في ظهور علم اجتماع الجسد، وذلك في سياق تحليلاته للمفاهيم الجديدة التي قدمها لعلم الاجتماع، مثل الممارسة (Practice)، والهائييتوس (Habitus)، والأشكال المختلفة لرأس المال، وعلاقة كل ذلك بالسلطة الرمزية للجسد (Turner, 1992: 23).

وعلى الرغم من أن انشغاله بالجسد لم يكن مباشراً، إلا أن سوسيولوجيا بورديو تمثل نموذجاً للدراسات التي يحتل فيها الجسد مساحة مهمة، وخاصة منذ أبحاثه الإثنوغرافية المبكرة في منطقة القبائل بالجزائر الحاضرة في أهم مؤلفاته (المعادي، ٢٠٠٤: ٢٧).

لقد طوّر بورديو بشكل ضمني سوسيولوجيا الجسد كجزء من انشغاله العام بنظرية الممارسة، وكشف في كتاباته المتعددة عن التمثيل الرمزي (Symbolic Representation) للجسد، وعن أهمية التذوّق (Taste) والترتيبات الجسدية الأخرى، كعناصر مهمة في رأس المال الثقافي، وتناول كذلك الجسد باعتباره حاملاً ومؤشراً على التمايزات الطبقية (Turner, 1992: 54).

وسوف نحاول في هذا الإطار «التماس» أبرز القضايا المتعلقة بالجسد في فكر بورديو، التي يمكن أن تشكّل – بصورة ما – ملامح لنظرية سوسيولوجية في الجسد.

١ - الجسد كمؤشر للبناء الطبقي: منظومة الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي

تشكّل الطبقة الاجتماعية (Social Class) مفهوماً تحليلياً جوهرياً في المشروع النظري لبير بورديو، حيث يمثل واحداً من المنظرين الرواد للطبقة في الفكر السوسيولوجي المعاصر (Wieninger, 2005: 82).

ولقد تميّز تحليل بورديو للطبقة من المدارس التقليدية المهتمة بالطبقة بأمريين: الأول أن نظريته في الفعل تدور حول مفهوم الهابيتوس الذي عرّفه بأنه نظام مشكّل اجتماعياً من الاستعدادات التي توجه الأفكار والإدراك والتعبيرات والأفعال. والثاني أن مدخل بورديو في تحليل الطبقة يعتمد بشكل جوهري على الأنساق الرمزية (Symbolic Systems) التي لا تعطيها المدارس التقليدية أهمية تذكر (Wieninger, 2005: 84).

ويمثل الجسد أحد الأبعاد المهمة في تحليل الطبقة في رؤية بورديو، إذ إنه يعدّ موقعاً أو فضاءً (Space) تدوّن عليه الممارسات الثقافية لمختلف الطبقات الاجتماعية، فكل طبقة – وكل طبقة فرعية – تمتلك نشاطاً مميزاً – خاصة في المجال الرياضي – يعرض سماتها الثقافية والاقتصادية. إن الجسد، كما يرى بورديو، يمكن اعتباره حاملاً للتمايزات الطبقيّة. ومن المهم أن يكون واضحاً أن بورديو لا يتجاهل الجسد العضوي، وإنما يؤكد أن هذا الجسد العضوي الذي يسمّيه «المادة الخام» (Raw Material) تقوم القوى الطبقيّة بتشكيله وإعادة صياغته، بحيث يصبح الجسد جزءاً من رأس المال الثقافي للفرد، ويصبح من ثم مصدراً للقوة أيضاً (Turner, 1992: 54-55).

ويرى بورديو أن الجسد يمثل جانباً مهماً من رأس المال الطبيعي (Physical) الذي يدخل تحت المعنى الواسع لرأس المال الثقافي، ويتم إنتاجه اجتماعياً وفق هابيتوس معيّن من خلال الرياضة والترفيه وأنماط الاستهلاك. فعلى سبيل المثال، تقوّي رياضة رفع الأثقال أجساد أبناء الطبقة العاملة، بينما ينتج التنس والجري جسداً رخواً لدى أبناء الطبقة الوسطى. إذن، فالممارسات الطبقيّة تدوّن على الجسد، الذي يعدّ بدوره منتجاً اجتماعياً لأنشطة طبقيّة خاصة، حيث تكشف الوسائل المتنوعة التي تدير بواسطتها الجماعات الاجتماعية أجسادها (من خلال الرياضة (Sport)، والحمية (Diet) والجراحة، والممارات الجنسية) الترتيبات العميقة للهابيتوس (Turner, 1992: 88-89).

وقد اهتم بورديو اهتماماً خاصاً بالجسد الرياضي (Sporting Body)، وكرّس جزءاً من جهده العلمي لحقل الرياضة والثقافة البدنية (Physical Culture)، وهو ما أدى إلى تطورات عميقة في المنظورات المعاصرة في علم اجتماع الرياضة (Sociology of Sport). والحقيقة أن الجسد الرياضي يكشف العديد من أفكار وتصوّرات بورديو حول الجسد، باعتباره يمثل كياناً وسيطاً (Mediating Entity) يربط الأفراد بالإطار الاجتماعي المكاني الأوسع، بما يتضمنه من عمليات القوة وإعادة الإنتاج والتغيّر (Brown, 2006: 163).

إن الرياضة، بحسب ما يرى بورديو، تمثل تدريباً على الفضائل الإنسانية الرفيعة (كالشجاعة (Courage)، واللعب النظيف (Fair Play))، كما أنها ترسخ إرادة النصر في قادة المستقبل، وفق قواعد محددة. إن مفهوم اللعب النظيف هو سمة أرستقراطية للطبقة المهيمنة تتناقض مع فكرة الانتصار بأي ثمن عند الطبقات الأخرى (الشعبية) (Plebian) ... وتعكس الرياضة كل سمات التذوّق للطبقة المهيمنة، إذ يفضل أبنائها رياضات، كالغولف، والتنس، والسباحة، وركوب الخيل، والمبارزة، والتزحلق على الجليد، كما أنهم يمارسونها في أماكن محددة قاصرة عليهم. والملاحظ على هذه الرياضات أنها تستبعد كل صور العنف

الجسدي واللفظي، وكل الاستخدامات السيئة للجسد (كالصراخ، والنظرات الحادة، وكل أشكال الاحتكاك المباشر بين المتنافسين). ويخلص بورديو الى القول إن الأنشطة الرياضية تستلزم أدوات ومتطلبات معينة تجعل رياضات محددة قاصرة على طبقات بعينها. (Mander. 1987: 430-431).

واستناداً إلى ذلك، يرى بورديو أن الرياضة تسهم في بناء الجسد بطريقة خاصة تلائم البنية الطبقيّة، وبذلك يعدّ الجسد عنصراً مهماً في الهابيتوس الخاص بكل طبقة، فهو يعرف الهابيتوس في هذا السياق بأنه الجسد المصنوع اجتماعياً (The Habitus is the Social Made Body)، فبما أن الفرد يدمج خبراته مع العالم الاجتماعي، فإن الهابيتوس يعبر عن نفسه في الحركات والإيماءات والوقفات، وفي الطريقة التي يستخدم بها الجسد في الفضاء الاجتماعي. ولا يمثل الجسد وسيطاً للتعبير عن الأمزجة والمشاعر فقط، وإنما يعبر كذلك عن المكانة الاجتماعية التي يشغلها الفرد. إن الجسد، باعتباره مستودعاً للخبرة الاجتماعية (A Repository for Social Experience) يشكل جزءاً ضرورياً من الهابيتوس الخاص بكل طبقة (Krais, 2006: 127).

ومن جهة أخرى، يعتقد بورديو أن الظروف الطبقيّة لا تسهم فقط في تشكيل الجسد، وإنما تسهم أيضاً في تشكيل تصوّرات الأفراد عن أجسادهم. فالطبقة العاملة تميل الى تطوير وتقوية أجسادها بطريق أداتية، بمعنى أنهم يتعاملون مع أجسادهم كوسيلة لتحقيق غايات معينة (القدرة على العمل والإنتاج)، أما الطبقة المهيمنة والمميّزة، فإن أفرادها يتعاملون مع أجسادهم كغاية في ذاتها، من خلال التركيز على ظهورها الفيزيقي الجيد، والاهتمام ببنيّتها ووظائفها الذاتية (Gimlin, 2006: 701).

يؤكد بورديو، إذن، أهمية الجسد في تحديد الطبقة، فهو لا يعتمد على المعايير الاقتصادية – السياسية الموضوعية وحدها، وإنما يركّز على مجموعة واسعة من الممارسات التي تميّز كل طبقة، مثل أنماط المعيشة، وأشكال الاختيار الاجتماعي في الحياة اليومية، وصورة الجسد (Body Image)، والتذوّق (Taste) الذي يتضمن الطعام والملابس، والموسيقى والفن والأدب ... إلخ (عبد الوهاب، ١٩٩٩: ٩٣).

ففي تحليله لقضية التذوّق، يقدم بورديو رؤية جديدة مغايرة لنظرية كانط (*) (Kant) الجمالية التي طرحها في كتابه المعروف **نقد الحكم الجمالي** (*Critique of Aesthetic Judgment*)، حيث حاول كانط (١٨٠٤ – ١٧٢٤) أن يوضح أن التذوّق أمر مطلق وعام وكلي. أما بورديو فيؤكد، خلافاً لذلك، أن التذوّق أمر اجتماعي – ثقافي متطور ومتغيّر، فهو

(*) يرى كانط أننا لا نملك أن نختلف إزاء الأمر الجميل، كلّ بحسب ذوقه الخاص أو ميوله الشخصية، لأن للجمال طابعاً كلياً يسري على الجميع... وتنتج السمة الكليّة للجمال في ما نلاحظه بالنسبة إلى روائع الجمال الفنّي التي تظلّ تؤثر في الحضارات والأجيال المختلفة، رغم زوال الظروف الاجتماعية والنفسية التي أبدعتها. إن الإحساس بالجمال، بحسب ما يرى كانط، لا يعتمد على البرهنة والأدلة العقلية المنقعة، وإنما يعتمد على أن ما يتمّ من انسجام بين ملكاتنا الذهنية والخيالية يؤدي بنا إلى الاتفاق على هذا الطابع الذي يجعل الجمال يفرض نفسه على الجميع. انظر: (مطر، ١٩٧٩: ٤٠ – ٤١).

مرتبط بالهابيتوس المتعلق بالطبقات الاجتماعية؛ إنه أمر اجتماعي نسبي، وليس أمراً مطلقاً (Turner, 1992: 89).

لقد حاول بورديو أن يقدم نظرية سوسيولوجية في التذوق تربط بين التذوق والبناء الطبقي في المجتمع؛ إنه أراد أن ينقل مفهوم التذوق الجمالي من المجال الفلسفي (الكلي – المتعالي) إلى الواقع الاجتماعي بكل تجلياته وتعقيداته وتناقضاته، واستناداً إلى ذلك فقد اعتبر التذوق – كأمر جسدي – مؤشراً مهماً للتمايز الطبقي في المجتمع.

يتضح مما سبق أن بورديو يطرح أبعاداً ومؤشرات مغايرة لتحديد البناء الطبقي، تتجاوز المؤشرات التقليدية التي اختزلت الطبقة في بعدها الاقتصادي فقط، ووجد بورديو في الجسد والممارسات المرتبطة به دلالات عميقة تكشف عن التفاوت الطبقي من جهة، والصراع الطبقي من جهة أخرى. وأوضح أن هناك علاقة وثيقة بين الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي.

٢ - التشكيل الاجتماعي لعادات الجسد

ثمة قضية أخرى مهمة يناقشها بورديو، وهي التشكيل الاجتماعي لما يسمّيه «عادات الجسد» (Body Hexis)، وهو أحد المفاهيم الجديدة التي طرحها بورديو في مشروعه النظري المتميز.

يقصد بورديو بعادات الجسد مختلف الطرق الراسخة اجتماعياً (Socially Inculcated) التي يتحرّك من خلالها الفرد، والأوضاع التي يشغلها جسده في العالم المعيش. فالأطفال يتعلمون كيف يؤدون حركات وإيماءات ووقفات جسدية وفقاً لترتيبات مفروضة تتناسب مع الطبقات الاجتماعية التي ينتمون إليها ... إن عادات الجسد بهذه الطريقة تمثل الجانب الأدائي (Performance Aspect) للهابيتوس باعتباره تنظيمًا دائماً لجسد الفرد، ووفقاً لرؤية بورديو ترتبط عادات الجسد مباشرة بالوظيفة الحركية (Motoric Function) للجسد، فالحركات والإيماءات والتعبيرات تعدّ مرشداً لإدراك الفرد لجسده وأجساد الآخرين (Troop and Murphy, 2002: 188).

ويرى بورديو أن الأطفال يلاحظون أجساد والديهم، ويعتبرونها حلولاً للمشكلة الأنطولوجية المتعلقة بكيفية وجودهم في العالم، كما أن عادات الجسد تمثل كل الحركات والاتجاهات التي يلتقطها الأطفال من والديهم. ويقول بورديو: «إن الطفل يقلّد الآخرين باعتبارهم نماذج (Models). إن عادات الجسد تشير إلى كل الوظائف والأنماط الحركية – الفردية والجماعية – التي ترتبط بالنسق الكلي لتقنيات الجسد وإدارته، وتتوافق مع المعاني والقيم الاجتماعية. في كل المجتمعات ينتبه الأطفال جيداً إلى كل الحركات الجسدية التي تعبّر – من وجهة نظرهم – عن كل الأشياء التي يجب أن يفعلها البالغون: طريقة المشي، وغطاء الرأس، وتعبيرات الوجه، وطريقة الجلوس، وكيفية استخدام الأدوات؛ كل ذلك في ارتباطه بنبرة الصوت، وأسلوب الحديث» (Young, 2002: 25).

ولذلك، يركّز بورديو بقوة على اللغة باعتبارها تمثل إحدى التقنيات المهمة في «عادات

الجسد». يقول بورديو: «إن رأس المال اللغوي هو رأس مال جسدي، وتمثل اللغة بعداً مهماً في تعلّم مهارات الجسد. إن اللغة هي تقنية جسدية، والقدرة اللغوية (Linguistic Competence) – خاصة المهارة الصوتية (Phonetic) – تعدّ بعداً مهماً في عادات الجسد، حيث يعبر المرء من خلالها عن علاقته الكلية بالعالم الاجتماعي». إن هذا يعني أن عادات الجسد – التي تعدّ إحدى السمات الطبقية – تنتج تفاوتاً منتظماً في الجانب الصوتي للحديث، ويعدّ ذلك التفاوت أحد الأبعاد المهمة في التمايز بين الطبقات (Bourdieu, 1977: 660).

واستناداً إلى مفهوم «عادات الجسد»، يرصد بورديو ما يسمّيه البناء الاجتماعي للجسد، حيث يعتبر أن الجسد يخضع لعملية تشكيل أو نحت اجتماعي من خلال استيعابه لعادات المجتمع وقيمه، ويصبح ذلك الاستيعاب وكأنه نظام تعليمي ضمني (Implicit Pedagogy) قادر على غرس تصوّر كامل عن الكون: تصوّرات فلسفية وأخلاقية وميتافيزيقية من خلال أوامر بسيطة، مثل «قف مستقيماً»، أو «لا تمسك سكينك بيدك اليسرى» (Manen, 2007: 18).

إن التشكيل الاجتماعي للجسد – بحسب تعبير بورديو – يجعل أشكال استخدام الجسد وسيلة من وسائل التعبير عن بنيات وعلاقات اجتماعية، ومرآة للتقابلات الاجتماعية، سواء تعلق الأمر بالفوارق بين الطبقات الاجتماعية أو الفئات العمرية أو التمايزات النوعية. وفي الوقت نفسه تدعيمها وتطبيعها، أي إظهارها بمظهر التقابلات أو الفروق التي تحتملها طبيعة الأشياء (المعادي، ٢٠٠٤: ٢٧).

وقد أفاض بورديو في شرح تلك الفكرة عند حديثه عن التقابل بين الذكورة والأنوثة، فهو يرى أن الوسيلة في تطبيع (Naturalization) التقابل بين الذكورة والأنوثة هي إدخال تلك الثنائية في سلسلة من التقابلات التي تعمل على حصر المرأة في مواقع محددة: منزلية ورعوية في مقابل المواقع الذكورية التي تنتشر في الفضاء العام لمجتمع القبائل في الجزائر (Mcney, 1999: 99).

إن التقابل بين الذكورة والأنوثة يتجسّد أو يتحقق في شكل استعمال الجسد أو اتخاذ أوضاع في أشكال من التصرفات والسلوكيات، وفي أشكال من التقابلات: بين المستقيم والمنحني (أو الذي يجعل منحنياً): الرجل يمشي مستقيماً رافعاً رأسه، والمرأة تفرض عليها الحشمة أن تمشي منخفضة الرأس. تعبّر طريقة الأكل كذلك عن تقابل بين الجنسين، وبشكل خاص طريقة استخدام الفم: الرجل يأكل بملء فمه ويفتحه بشكل واسع، في حين تأكل المرأة بشكل مخالف بنهاية الفم، وكأنها لا تأكل. كما تتجلى التقابلات في طريقة استقبال الناس: الرجل ينظر مباشرة وجهاً لوجه لمن يستقبله، في حين لا تستخدم المرأة الحركات نفسها، بل تنظر بمواربة بنوع من الخجل والانحناء. إنها خصائص فيزيقية ترتبط بها صفات أخلاقية متقابلة: الصرامة والاستقامة والصراحة بالنسبة إلى الرجل، والاحتشام والرفقة والانعزال بالنسبة إلى المرأة (المعادي، ٢٠٠٤: ٢٨).

إن الجسد هنا يعبر عن عالمين متناقضين: عالم الأنوثة الذي يتضمن فضائل نسوية (Feminine Virtues)، كالحياء، والاحتشام، والتحفظ، والتخفي؛ إنها فضائل توجه الجسد الأنثوي إلى الأسفل، نحو الأرض، نحو الداخل، إلى المنزل، أما عالم الذكورة فيتضمّن مزايا

مغايرة تماماً؛ الحركة نحو الأعلى، نحو الخارج، إلى العوالم الأخرى (Covington, 2008: 7).

إن علاقة الرجال والنساء/ الذكورة والأنوثة تعكس نوعين من العلاقات مع العالم، ومع الآخر، ومع الزمن، ونسقين متقابلين من القيم، فالأخلاق أو «البناء الاجتماعي للجسد» يطبع جسد المرأة بالانحناء، ويجعل جسد الرجل مستقيماً إلى أعلى. إن هذه التقابلات تستمد رمزيتها من حيث كونها تترجم إلى حركات تبدو تلقائية، وكأنها تعبر عن طبيعة الأشياء، فالتشكيل الاجتماعي لخصائص الجسد وحركاته هو في الوقت نفسه إضفاء صفة الطبيعي على الاختيارات الاجتماعية الأكثر عمقاً (المعادي، ٢٠٠٤: ٢٨).

ويستند بورديو إلى مفهوم العنف الرمزي لتعميق فكرة تطبيع الفوارق بين الجنسين، أي إظهار تلك الفوارق وكأنها فوارق حتمية تحددها طبيعة الأشياء، فالعنف الرمزي هو شكل من السلطة يمارس على الجسد بطريقة مباشرة، وكأنه يملك مفعولاً سحرياً، إذ إن تلك السلطة تتم خارج كل «إكراه»، إلا أن هذا «السحر» لا يكون مؤثراً إلا إذا ارتكز على استعدادات كامنة في عمق الجسد إن النساء بصفتن ضحايا للعنف الرمزي يقبلن علاقات التراتبية الجنسية الاعتيادية بطريقة تلقائية، وهذه التلقائية هي التي يصفها بورديو كشكل من الخضوع لمفعول السحر (المرنيسي، ٢٠٠٢: ٢٣١ - ٢٣٣).

ولذلك، يشدد بورديو على أهمية القيم المرتبطة بالجسد، التي يجعلها المجتمع حتماً مقضياً، ففي مجتمع القبائل الجزائري، ينظر إلى القيم والفضائل المرتبطة بالجسد الأنثوي باعتبارها أمراً ملائماً تماماً للمرأة، ومن ثم تمثل المرأة لهذه الفضائل في طريقة استخدام جسدها وتوجهاته وحركاته في حياتها اليومية (Covington, 2008: 7-8).

إن البناء الاجتماعي للجسد يعكس تقسيم العمل الجنسي، وتقسيم العمل الاجتماعي، والعلاقة مع الجسد تتحدد بحسب الشكل الذي يتخذه تقسيم العمل بين الجنسين من جهة، وبحسب الوضع الاجتماعي الذي يشغله الفرد - رجلاً كان أو امرأة - ضمن تقسيم العمل الاجتماعي من جهة أخرى (المعادي، ٢٠٠٤: ٢٩).

ويخلص بورديو إلى قضية مهمة، هي أن البناء الاجتماعي للجسد بقدر ما يجعل الفوارق الاجتماعية تبدو طبيعية، فهو كذلك يريد أن يجعل من الفوارق الطبيعية تبريراً للفوارق الاجتماعية، أو يحوّل الاختلافات البيولوجية الطبيعية إلى اختلافات في المكانات الاجتماعية، والبناء الاجتماعي للجسد، بحسب تعبير بورديو، ليس في نهاية الأمر إلا تعبيراً عن «ميثولوجيا سياسية» (Political Mythology) تحوّل إلى استعداد مستمر، في شكل طريقة دائمة لاتخاذ أوضاع جسدية للكلام والمشي، ومن ثم الإحساس والتفكير (المعادي، ٢٠٠٤: ٢٩، و Covington, 2008: 7).

يتبين من قراءة ما يطرحه بورديو حول البناء الاجتماعي لعادات الجسد أن ثمة خلطاً وقع بين «الطبيعي» و«الاجتماعي - الثقافي»، وأدى ذلك الخلط إلى حدوث نوع من التهميش للجسد الأنثوي - خاصة في المجتمعات التقليدية - حيث تعمل الثقافة على جعل الفوارق الطبيعية بين الرجل والمرأة أساساً ومبرراً للفوارق الاجتماعية، ومن ثم، يظل الجسد الأنثوي في وضع أدنى، ليس هذا فقط، بل إنه من خلال العنف الرمزي، يستقر في وعي

المرأة - وفي لا وعيها أيضاً - أن ذلك من طبائع الأشياء التي لا يمكن تغييرها، وبالتالي فإنها تخضع لهذا التمييز النوعي، وتعتبره أمراً مألوفاً ومقبولاً. ومن ثم يرى بورديو أن عادات الجسد لا تعتبر فقط عن أوضاع جسدية، وإنما تعكس بناءً ثقافياً وأخلاقياً راسخاً، وبالتالي فهو يصف البناء الاجتماعي للجسد بأنه «ميثولوجيا سياسية»، تبدو من قراءة بورديو أنها مصطنعة ومقصودة، لتحقيق الهيمنة الذكورية وتعميقها.

٣ - الجسد وذاكرة المجتمع

على الرغم من أن معظم الدراسات التاريخية تثمن النصوص المكتوبة لدراسة التاريخ، فإن العديد من الباحثين يدرك الآن أن التاريخ يوجد في الجسد من خلال الممارسات المرتبطة به. واستناداً إلى ذلك، فإن الباحثين في أنثروبولوجيا الجسد، على سبيل المثال، لا يهتمون بالجسد فقط كأداة للمعرفة، وإنما أيضاً كطريقة للتذكّر (Body as a Way of Remembering) (Covington, 2008: 5).

والواقع أن العديد من الباحثين في مختلف المجالات الفكرية يؤكدون أهمية الجسد كـ «وثيقة تاريخية»، فنجد أن ميشيل فوكو (M. Foucault)، على سبيل المثال، يرى أن الوثيقة (Document) ليست في النص الذي يأسرنا في بحثنا عن أكبر قدر من الموضوعية لمقاربة موضوعات البحث، وليست الوثيقة هي التزامنا تجاه الماضي نقّس مطلقته لتصبح «مستقبلية المستقبل» والأنموذج الموجه لآنية الحاضر، بل الوثيقة هي الجسد ذاته، كما هو مأخوذ في علاقات السلطة، تحفر فيه أخاديد لا تمحى، وترسم على جدرانه بوشم عصي زواله (العبادي، ٢٠٠٤: ٥٦).

ويؤكد بول كونيرتون (P. Connerton) في كتابه **كيف تتذكر المجتمعات** (How Societies Remember) الصادر عام ١٩٨٩ دور الجسد في تشكيل ذاكرة المجتمعات، فكل الممارسات والعادات المشتركة تنتقل عبر الجسد، وتعمل الممارسات الجسدية على خلق الذاكرة الثقافية وتنشيطها (Covington, 2008: 5-6).

وفي إطار تحليله لهذه القضية، يرى بورديو أن عادات الجسد تمثل بمعنى ما «ذاكرة الجسد» التي تبلورت من خلال التفاعل العملي بين الجسد والبيئة المحيطة به. إن التقليد العملي المتضمن في عادات الجسد يركز على فكرة أن النماذج قادرة على الانتقال مباشرة من ممارسة إلى أخرى من دون المرور عبر الخطاب والوعي. هذه الأشكال من النماذج الجسدية - حسبما يرى بورديو - تمثل المصدر الأصلي للمقاصد والمشاعر والذوق العام، ويمكن من خلال التحليل الدقيق لتلك النماذج الحركية أن نرى الجسد بوضوح باعتباره «جسداً مصاغاً اجتماعياً» وفق أنماط الحسن والذوق (Troop and Murphy, 2002: 188).

ويرى بورديو أن ذاكرة الجسد تمثل جزءاً من ذاكرة المجتمع، فتجسّد القيم والمبادئ الاجتماعية يعدّ أمراً مهماً في المجتمعات التي لا تؤدي فيها النصوص المكتوبة دوراً مركزياً في الحفاظ على التاريخ، وفي انتقال القيم الأخلاقية والأيدولوجيات. ولهذا يعتقد بورديو أن في المجتمعات - سواء الأمية أو المتحضرة - التي تفتقد وثائق موضوعية، يمكن الحفاظ على

المعرفة المتوارثة فقط في صورتها الجسدية. ومن الواضح أن الممارسات الجسدية تعدّ وسيطاً مهماً في نقل وتنشيط القيم الاجتماعية والمثل والتاريخ الثقافي (Covington, 2008: 8-9).

إن الجسد، كما يتبدى لبورديو، يعدّ سجلاً (Record) حياً لذاكرة المجتمع، فهو يحمل كل الممارسات والأنشطة التي أبدعها المجتمع عبر تاريخه، فالجسد هو تاريخ يمشي على الأرض، يذكر الفاعلين المعاصرين بما أنجزه السابقون من أعمال، وبما ارتكبه من أخطاء. إنه وسيلة اتصال بين الماضي والحاضر.

إن دراسة الجسد والممارسات المرتبطة به يمكن أن تكشف عن تفاصيل كثيرة عن المجتمع وتاريخه، وعلى اعتبار أن الممارسات الجسدية تمثل وثائق «ثانوية» مدوّناً عليها تفاصيل الحياة اليومية، فإنها تشكل موقعاً جيداً ومخزوناً ثميناً للقيم المهمة والأحداث التاريخية التي مرّ بها المجتمع في ارتباطها بالسياق الاجتماعي – الثقافي (Covington, 2008: 13) (*).

خاتمة

برحيل بيير بورديو في عام ٢٠٠٢، فقد علم الاجتماع منظرًا ماهراً للثقافة والمجتمع والجسد، وافتقد المجتمع الإنساني نشاطاً مهماً ومشاركاً فاعلاً مع الفئات الاجتماعية التي لا صوت لها في المجتمع (Creswell, 2002: 382).

أسّس بورديو منظوراً سوسيولوجياً نقدياً، ساهم في تعاين علم الاجتماع من الأزمة التي ألمّت به منذ ستينيات القرن الماضي، وقد اتسم المشروع الذي قدمه بورديو بالشمولية والعمق، حيث تناول قضايا لم تكن مطروحة من قبل في الوعي السوسيولوجي بقدر كبير من الكفاءة المنهجية التي دمجت الذاتي بالموضوعي، والكيفي بالكمّي، وجمع بمقدرة واضحة بين المنظورات الفلسفية والأنثروبولوجية والتاريخية والأدبية، وكان الجسد واحداً من الآفاق الجديدة التي ارتادها بورديو، وبذلك اعتبره الكثير من المهتمين بسوسيولوجيا الجسد أحد مؤسسي هذا العلم ورؤاده الأوائل، حيث طرح مجموعة من القضايا والإشكاليات التي تعدّ إرهاصات لنظرية سوسيولوجية للجسد.

وحاولت الدراسة الحالية رصد واستكشاف أبرز هذه القضايا، فكشفت أن الجسد وفق ما يراه بورديو هو كيان يتم تشكيله اجتماعياً، كما أنه يمثل وسيطاً يربط الأفراد بالإطار

(*) تمثل الحضارة المصرية القديمة نموذجاً ممتازاً لما يطرحه بورديو عن الجسد كذاكرة للمجتمع. تقول عالمة المصريات البريطانية لين ميسكل (L. Meskel) إن الحضارة المصرية القديمة غنيّة بالمعاني والممارسات المرتبطة بالجسد والهوية، وكان لدى المصريين القدماء الكثير ليقولونه حول الذات والجسد والهوية ومقوماتها. فبالإضافة إلى النصوص الغزيرة حول القضايا الجسدية، تمّ التعرف من خلال الأجساد المحنطة (Mummified Bodies) التي تمّ اكتشافها، على التقاليد الثقافية، والتباين الاجتماعي، واللامساواة الطبقيّة، والميول الشخصية للأفراد، ونمط حياة الفئات الاجتماعية المختلفة، وكشفت دراسة تلك الأجساد عن الخصوصيات الثقافية، والممارسات الجنسية، والقيم الاجتماعية. ولقد بيّنت الأجساد المحنطة أن المصريين القدماء كانوا مهمومين بأسئلة حول الوجود واللاوجود (Being and Non-being) وحول معنى الموت، وطبيعة الإنسان والكون، والأسس التي يقوم عليها المجتمع الإنساني، وهي أسئلة ما تزال تشغل أذهان الباحثين (Meskel, 1999: 107-135).

الاجتماعي - المكاني الأوسع، بما يضمه من عمليات القوة وإعادة الانتاج والتغيير. ويرى بورديو أن الجسد يمثل جزءاً من رأس المال الثقافي، ويخضع للقوانين التي تحكم هذا النمط من رأس المال، من حيث إنتاجه واستثماره وانتقاله من الجماعة إلى الأفراد الذين ينتمون إليها. كما يمثل الجسد فضاءً تدوّن عليه الممارسات الثقافية لمختلف الطبقات الاجتماعية، ويؤكد بورديو أن الجسد حاضر دائماً في عمليات الهيمنة والصراع الطبقي.

وبناءً على ذلك، يمثل الجسد مؤشراً مهماً على التمايز الطبقي، حيث يكشف الجسد مختلف الوسائل والآليات التي تميز كل طبقة في تعاملها مع أجساد أفرادها، كالحمية والجراحة والممارسات الجنسية والرياضة.

قدم بورديو مفهوماً جديداً، وهو عادات الجسد (Body Hexis)، ويقصد به مختلف الطرق الراسخة اجتماعياً التي يتحرك من خلالها الفرد، والأوضاع التي يشغلها جسده في العالم المعيش. واستناداً إلى هذا المفهوم، يرصد بورديو ما يسميه «البناء الاجتماعي للجسد»، حيث يرى أن الجسد يخضع لعملية تشكيل أو نحت اجتماعي من خلال استيعابه لعادات المجتمع وقيمه.

ويعتقد بورديو أن التشكيل الاجتماعي للجسد يجعل أشكال استخدامه وسيلة من وسائل التعبير عن بنى وعلاقات اجتماعية، ومرآة للتقابلات الاجتماعية، سواء تعلق الأمر بالفوارق بين الطبقات الاجتماعية أو الفئات العمرية والنوعية، وفي الوقت نفسه تدعيمها وتطبيعها، أي إظهارها بمظهر التقابلات أو الفروق التي تحتمها طبيعة الأشياء.

في حديثه عن التقابلات بين الذكر والأنثى، يرى بورديو أن الجسد يعبر عن عالمين متناقضين: عالم الأنوثة الذي يتضمن الفضائل النسوية، كالحياء والاحتشام والتحفّظ... إلخ؛ إنها فضائل توجه الجسد الأنثوي إلى الأسفل، نحو الأرض، نحو الداخل إلى المنزل. أما عالم الذكورة فيتضمن مزايا مغايرة تماماً: الحركة نحو الأعلى، نحو الخارج، إلى العوالم الأخرى.

يركّز بورديو على قضية أساسية استناداً إلى ما سبق، وهي أن البناء الاجتماعي للجسد بقدر ما يجعل الفوارق الاجتماعية تبدو طبيعية، فهو كذلك يريد أن يجعل من الفوارق الطبيعية تبريراً للفوارق الاجتماعية، أي يحوّل الاختلافات البيولوجية إلى اختلافات في المكانات الاجتماعية.

ويؤكد بورديو أخيراً أن الجسد يمثل ذاكرة وسجلاً للمجتمع، فهو يحمل كل الممارسات والأنشطة التي أبدعها المجتمع عبر تاريخه، فالجسد تاريخ يسير بقدميه على الأرض، يذكّر الفاعلين المعاصرين بما أنجزه السابقون من أعمال وأخطاء.

إن دراسة الجسد يمكن أن تكشف، بحسب ما يرى بورديو، عن تفاصيل كثيرة عن المجتمع وتاريخه، ويعدّ الجسد موقعاً قيماً، ومخزناً ثميناً للقيم والأحداث التاريخية التي مر بها المجتمع في ارتباطها بالسياق الاجتماعي والثقافي □

المراجع

- بورديو، بيار (١٩٩٨). أسباب عملية: إعادة النظر للفلسفة. تعريب أنور مغيث. بيروت: دار الأزمنة الحديثة.
- العبادي، عبد العزيز (١٩٩٤). ميشيل فوكو: المعرفة والسلطة. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- عبد العظيم، حسني إبراهيم (٢٠٠٨). «الجسد والسلطة والمعرفة: دراسة تحليلية لإسهام ميشيل فوكو في تأسيس سوسيولوجيا الجسد». مجلة كلية الآداب (جامعة بني سويف): العدد ١٢، نيسان/أبريل.
- عبد الوهاب، أشرف (١٩٩٩). «نظم التعليم وبطالة قوة العمل: دراسة ميدانية لبطالة المتعلمين في الريف». (رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة حلوان).
- المرنيسي، فاطمة (٢٠٠٢). العابرة مكسورة الجناح: شهرزاد ترحل الى الغرب. ترجمة فاطمة الزهراء أزورويل. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- مطر، أميرة حلمي (١٩٧٩). فلسفة الجمال. القاهرة: دار المعارف. (كتابك)
- المعادي، زينب (٢٠٠٤). الجسد الأنثوي وحلم التنمية: قراءة في تصورات عن الجسد بمنطقة الشاوية. الرباط: [د. ن.].

- Bourdieu, Pierre (1977). «The Economics of Linguistics Exchange.» *Social Science Information*: vol. 16, no. 6.
- Bourdieu, Pierre (1985). «The Social Space and The Genesis of Groups.» *Social Science Information*: vol. 24, no. 2.
- Bourdieu, Pierre (1986) «The Forms of Capital.» in: John G. Richardson. *Handbook of Theory and Research for Sociology of Education*. Westport, Conn: Greenwood Press.
- Brown, David (2006). «Pierre Bourdieu's «Masculine Domination» Thesis and the Gendered Body in Sport and Physical Culture.» *Sociology of Sport Journal*: no. 23.
- Covington, Yolanda Denise (2008). «Embodied Histories, Danced Religions, Performed Politics: Kongo Cultural Performance and the Production of History and Authority.» (Ph.D. Dissertation in Anthropology, University of Michigan).
- Cresswell, Tim (2002). «Bourdieu's Geographies: In Memoriam.» *Journal of Society and Space*: vol. 20.
- Ernest, H. (2006). *Pierre Bourdieu on Structure Agency Structuralism*. Netherlands: Radbaud University of Nijmegen.
- Fuchs, Christian (2003). «Some Implications of Pierre Bourdieu's Works of a Theory of Social Self-organization.» *European Journal of Social Theory*: vol. 6, no. 4.
- Gimlin, Debra (2006). «The Absent Body Project: Cosmetic Surgery as Response to Bodily Disappearance.» *Sociology*: vol. 40, no. 4.
- Koniordos, Sokratis (2008). «Social Capital.» in: William A. Darity. *International Encyclopedia of The Social Sciences*, 2nd ed. New York: Macmillan Reference USA.
- Krais, Beate (2006). «Gender, Sociological Theory and Bourdieu's Sociology of Practice.» *Theory, Culture and Society*: vol. 7, no. 6.

- Mander, Mary S. (1987). «Bourdieu, The Sociology of Culture and Cultural Studies: A Critique.» *European Journal of Communication*: vol. 2, no. 4.
- Manen, Max Van (2007). «Phenomenology of Practice.» *Phenomenology and Practice*: vol. 1, no. 1.
- McNay, Lois (1999). «Gender, Habitus and the Field, Pierre Bourdieu and the Limits of Reflexivity.» *Theory, Culture and Society*: vol. 16, no. 1.
- Meskill, Lynn (1999). *Archaeologies of Social Life*. Oxford: Blackwell Publishers.
- O'Hara, Philipp (2008). «Cultural Capital.» in: William A. Darity. *International Encyclopedia of The Social Sciences*, 2nd ed. New York: Macmillan Reference USA.
- Öztürk, İnasi (2005). «Pierre Bourdieu's Theory of Social Action,» *Sosyal Bilimler Enstitüsü Dergisi* (University of Mugla- Turkey).
- Preebles, G. (2008) «Pierre Bourdieu.» in: William A. Darity. *International Encyclopedia of The Social Sciences*, 2nd ed. New York: Macmillan Reference USA.
- Robbins, Derek (2002). «Pierre Bourdieu, (1930-2002).» *Theory, Culture and Society*: vol. 19, no. 3.
- Shilling, Chris (2005). «The Embodied Foundation of Social Theory.» in: Georges Ritzer and Barry Smart (eds.). *Handbook of Social Theory*. London: Sage Publication.
- Siisänen, Martti (2000). «Two Concepts of Social Capitals: Bourdieu Vs Putnam.» paper presented at: ISTR Forth International Conference «The Third Sector: For What? and for Whom?» Trinity College, Dublin, Ireland.
- Sullivan, Alice (2000). «Cultural Capital and Educational Attainment.» *Sociology*: vol. 35, no. 4.
- Troop, Jason and Keith M. Murphy (2002). «Bourdieu and Phenomenology: A Critical Assessment.» *Anthropological Theory*: vol. 2, no. 2.
- Turner, Bryan S. (1992). *Regulating Bodies: Essays in Medical Sociology*. London and New York: Routledge.
- Turner, Bryan S. (ed.) (2006). *The Cambridge Dictionary of Sociology*. Cambridge, MA: Cambridge University Press.
- Walter, William (2002). «Social Capital and Political Sociology: Re-imagining Politics.» *Sociology*: vol. 36, no. 2.
- Waquant, Loïc (2006). «Pierre Bourdieu.» in: Rob Stons (ed.). *Key Contemporary Thinkers*. London and New York: Macmillan.
- Waquant, Loïc. (2002). «The Sociological Life of Pierre Bourdieu.» *International Sociology*: vol. 17, no. 4.
- Wieninger, Elliot B. (2005). «Foundations of Pierre Bourdieu's Class Analysis.» in: Erik Olin Wright (ed.). *Approaches to Class Analysis*. Cambridge, MA: Cambridge University Press.
- Young, Katharine (2002). «The Memory of the Flesh: The Family Body in Somatic Psychology.» *Body and Society*: vol. 8, no. 3.